ثورة الطبيعة وثورة المجتمع

الدكتور محمد يحيى الهاشمي

كم من تشابه بين حوادث الطبيعة وحوادث المجتمع ! وهل المجتمع إلا جزء من عالم الطبيعة وخلية من الخلايات المتعددة التي تشكل هـذا العالم الكبير الواضح بمظاهره والغامض بأسراره ومعمياته ؟ وكما يسود التطور في نظام الطبيعة على اختلاف أشكالها وتباين أنواعها ، يسود في نظام المجتمع والهيئات البشرية هـذا القانون . هكذا نجد انتقالا وتصعداً في سلم الرقي خطوة خطوة ودرجة فدرجة . أما الطريق فما الطالبين بعيد ، وليس من هدف ولا غاية ، وما المكان الذي نظنه نهاية المطاف ماهو في الحقيقة إلا مرحلة انتقالية إلى مرحلة أخرى . الطبيعة تمشي والمجتمع يسير ، لا يعرفان الوقوف ولا السكون ولا الراحة ولا الاستقرار ، وما الاستقرار الظاهري إلا دور يهيئ إلى دور آخر ؛ فكل ما يقع عليه بصرنا أو تدركه بصيرتنا ، يسطو عليه دوما ناموس الجريان والتغير الدائم .

إن هذه التغيرات البطيئة جداً تدق حتى عن فهم الذكي ، ولكن لدى النظرة العميقة وتتبع الحوادث الطويلة نجد كل ماعلى سطح الأرض تابعاً للتغير والتبدل ، فلا شيء يبقى على حاله الأصلي فالجبال التي يضرب بها المثل في الثبوت لا تبقى مكانها ، بل بتعاقب الأحقاب الطويلة تتزلزل وتصبح سهولا وتنخفض السهول فتصير وهاداً فنجاداً فهضاباً إلى أن تكون جبالا شاهقة تتخللها الوديان السحيقة ، وكثيراً ما تجف بعض المناطق البحرية ، فتصبح براً والبر يتحول إلى بحر ، وهكذا فإن التبدلات الجزئية التي تظهر للناظر السطحي كشيء تافه لا قيمة له ، تكون بتعاقب ملايين السنين انقلاباً خطيراً يدهش الأنظار ، ويكاد لا يصدق الانسان ما كانت عليه بعض المرتفعات الشاهقة في الماضي لولا الحيوانات البحرية التي بادت وتركت مخالبها بين طيات الأحجار .

قياسا على ما بيننا فإن الأمم تتغير وتتبدل ، وبتأثير الأفكار الهادئة الرزينة تنتقل من طور إلى طور وذلك بتعاقب الأجيال

وأخبرتنا أن زوجها قد بلغ من العمر أرذله ، وبحسب قانون الطبيعة لن يعيش طويلاً ، ولتريه عظم حبها له أنقذت ما يحبه المسكين أكثر من حياته . وكانت الأخرى تحمل ابنها على ظهرها ، وقيل لنا إنه من أعظم الفجار الأشرار في المدينة ، ولكن على مثل هذا الحنان جبلت الأمهات الرقيقات ، فقد تركت خلفها أسرة عامرة بالأمل ومؤلفة من زوج وبنين وبنات لأجل هذا المخلوق الشرير .

ولو تركت لقلمي العنان أن يسجل ما رأيت في هـذا الحلم الغريب لما انتهيت من السرد والوصف ، فقد امتلأ المكان حول برزم مربوطة وحرائر مشجرة ومطرزات وعشرة آلاف من مواد أخرى كافية لأن تملأ شارعاً بمخازن مملوءة بالمدى . وأقبلت إحدى السيدات تحمل زوجها الذي لم يكن ثقيلا وتحمل في الوقت نفسه علاوة على ذلك ربطة كبيرة من الأشرطة الحريرية المولندية ، وعندما ضاقت بحملها ووجدت أنها لا تستطيع الاحتفاظ بكليهما أسقطت بعلها الصالح وحملت الأشرطة وتابعت سيرها . وبالاختصار لم أجد سوى زوج واحد مع هذه الأمتعة وكان إمكانياً نشيطاً . لقد كان يرقص ويهمز رجليه وهو محمول على أكتاف زوجته ، وقيل لي بعدئذ إن يوماً من أيام حياتها لم يمر دون أن يعاقبها بالضرب الشديد .

ولن أستطيع إتمام هذه الرسالة يا صديقي المحرر من غير أن أخبرك عن خاطر عجيب مر بي في رؤياي . فقد رأيت كما خيل إلي عشرات النساء متهمكات في سحب رجل واحد لم أتبينه أول وهلة حتى اقترب مني وبانت ملامحه فإذا به أنت . وقد صرحن أن ذلك لأجل انتاجك الأدبي ، وليس لشخصك ، على شرط أن تستغرق تحرير السيكتاتور . فإذا وجدت في هذا الحلم مايلائمك فهو تحت تصرفك يا عزيزي المحرر ، وأنا صديقك في النوم واليقظة .

ويل شوفي كوصب

سيري السيدات كما خبرتهن كثيراً ، أن (ويل) رجل من الطراز القديم في التهكم والجنون في المدينة ، وهو هنا يظهر مواهبه بالتهكم على الزواج كرجل جرب حظه مراراً عديدة في هذا المضمار وخاب . وعلى كل حال لم أستطع إهمال رسالته لأن القصة الحقيقية التي بني عليها رسالته مما يرفع رأس المرأة عالياً ، وأنه في سبيل إنذارهن قد جنح به المنطق إلى الرؤى والخيال .

(بغداد) صاحبة التفتيشي

والصور ، ولولا مادونه لنا التاريخ في قرون مضت ، أو بعض الآثار الباقية عن الأمم الخالية ، لما عرفنا ما كانت عليه الشعوب والحضارات الماضية .

نعم إن بعض الأمم قد تحدث عما كانت عليه من قبل ، كاليونان الذين كانوا يحملون مشعل العلم والفن ، أو كالرومان الذين شيدوا الممالك وأوجدوا التشاريع ، أو كالأمة العربية التي أخذت عن الأمم السالفة ما أخذت وأبدعت من ذاتها ما أبدعت وساهمت في تشييد صرح المدنية الحاضرة ، ولكننا إذا اعتبرنا البشرية بأجمعها أسرة واحدة ورثت كل أمة عن الأخرى ماورثت فعند ذلك نميل إلى الإعتقاد بالتقدم الدائم والتطور المستمر .

هذا التطور البطيء هو من سنة الكون ، ولكن بجانب ذلك نشاهد في عالم الطبيعة وعالم المجتمع من انقلاب فجائي واندفاع آني يدك الأرض دكا ويغير معالمها . إن هذه القضية تقضيها الطبيعة في انفجار البركان وفي الزلزال الأرضي يذهب ضحيتها في كثير من الأحيان كثير من الكائنات الحية . وفي عالم الاجتماع نشاهد ذلك أيضاً في الانقلابات الاجتماعية التي تكون عند الاختراعات العظيمة أو عند اليقظة الفكرية . ولعل حاجتنا في هذا العصر الذي قطعت فيه أوروبا في سبيل الرقي والتقدم ما قطعت من الخطوات الواسعة ، إلى انقلاب في جميع طرز حياتنا لأعظم من أي عصر ، لأن بلاد الغرب قطعت تلك المراحل في قرون عديدة .

أما نحن ، فإن حاجتنا أن نأخذ النتائج كما هي ، ومن بعد ذلك نسمو في الإبداع وإظهار قابليتنا . فإذا أردنا أن ننتظر الزمن وتبدلاته البطيئة فلن نلحق بركاب الغرب . عند ذلك نبقى متأخرين عن الأمم الراقية أبد الآبدين . فالأرض تثور لتخرج ما في جوفها من لظى مستعر ، والمجتمع يثور ليطلق ما في قلبه من نار متأججة مبدلا بها معالم حياته . وكم من تشابه بين الطبيعة والمجتمع . تندفع المياه إلى النيران المستعرة في جوف الأرض فتتشكل الأبخرة وتتراكم إلى أن تنطلق بقوة وعنف ، وكذلك تتجمع الأفكار في الأدمغة إلى أن تنطلق بقوة فعالة فتدك المعالم القديمة لتبني فوق أنقاضها عالما جديداً على أساس عميق . وما أعمق فور الإنسان ، وما أشد حاجته إلى أن يبني بناء المجد الشامخ على أساس ثابت ! وكلما سمت الشجرة في السماء تحتاج إلى جذور عميق في الأرض ، متبعث عن توق للتجدد واشتياق كامن في النفوس إلى الحياة . ولابد من أبنائها إلا من تاق لها وقدر قيمتها . أما من لم يتق إلا للفناء فني قرارة نفسه على رأي بعض الأدباء المعاصرين فراغ رهيب وصدى فناء صارخ بصوت القبور ، ونشاط أجوف يبتلع القيم ، ناقم على الوجود . ويقاس الناس في عمل كل إصلاح بالنسبة إلى إيجابيتهم وأهليتهم للبناء ومساهمتهم في الفوضى . المدمرون كثيرون وأما البناؤون فقلائل . ودعاة الفوضى لايحصى لهم عدد ؛ أما الإيجابي فطريقه طريق الحياة ولو جاءت الحياة من طريق التدمير .

في النهضة المنبثقة عن الحياة النابضة انطلاق وثاب ونفس ضاقت بما فيها فانفجرت في قوة مكتسحة بناءة تتجه نحو الخير والجمال ، وتندفع في سبيل بلوغها بقايا الفساد القائمة . شتان بين من يهدم ليهدم وبين من يهدم ليبني ، ففي أحشاء الأول فناء وفي أحشاء الثاني حياة وارتقاء . يثور الأول ليحطم ، فلن يلبث أن يبتلع نفسه . أما الساعي للبناء ففي أحشائه امتلاء دفاق ، فيعطي عطاء سخياً ، ولا تكون الحياة إلا حيث يكون العطاء .

في انطلاق البراكين مواد هامة لبناء القشرة الأرضية ، حتى أن دورة الماء لا تقف عند سطح الأرض ، بل ثبت أن الحياة الإندفاعية الباطنية لتشترك في الدورة المائية ، وفي الأحقاب التي كان فيها اندفاع البراكين على أشده كانت المياه أشد غزارة . في اندفاع الينابيع الفوارة إثراء للأرض وللكائنات الحية على سطحها ، وفي الفيضانات الطاغية سماد لها لتزداد قوة الانبات فيها ، رغم ماتجره تلك السيول الطاغية على الحقول والبساتين والمنازل من الأضرار والتخريب . حتى أن في الزلازل الخفيفة فائدة في تكييف شكل الأرض .

إن في النهضات الإجتماعية أيضاً والثورات الفكرية أضراراً جزئية لا يخلو منها انقلاب من الانقلابات ، ولكن الحوادث تتراءى لنا عكرة إذا نظرنا إليها بمنظار أنانيتنا ، أما إذا نظرنا إليها بمنظار المصلحة العامة والخير الشامل ، عند ذلك يتلاشى من نفوسنا حب الذات والأثرة ونترك أموراً خافية عنا .

قد يكون في النور الشديد الظل المديد ، وجذر الانقلاب العميق هو في النفس ، وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

(بغداد) محمد يحيى الهاشمي